الفكر البعثي في الكتابة الادبية

مقدمة في موضوعة الانبعاث القومي

د. محسن جاسم الموسوي

رئيس قسم الاستشراق - كلية الآداب - جامعة بغداد

تكتسب المداخلة في موضوعة الانبعاث القومي في الادب اهمية كبيرة ، ولا سيما في المرحلة الراهنة : ذلك لان الساحة الثقافية ، والتي كانت حتى وقت قريب معنية بالمشاغلات المعروفة بين (التقدمية) و ـ السلفية ـ و ـ الحديث ـ و ـ القديم ـ و ـ اليسار ـ و ـ اليمين ـ لم تعد وقفا على هذه الاصطراعات التقليدية الدارجة . وفي الواقع نبهت بعض اتجاهات الندوات واللقاءات الفكرية داخل الوطن العربي وخارجه مؤخرا الى ان الكتاب العرب اخذوا يتحسسون بحدة بعض التغيرات والتي وضعتهم امام تحد صعب ، واخذت تدعوهم بالحاح الى المساهمة جديا في الخلاص من المحن والارتباطات التي يتعرض لها الفكر العربي ،[1] في هذه المرحلة ، والتي هي ايضا مرحلة انعتاق ممكن من ثقافة الانكسار . [2]

---

(١) لعل من ابرز هذه الندوات ، ندوة الابداع الفكري التي انعقدت في جامعة الكويت بين ٨ـ١٢ نيسان ، ١٩٨١ . والتي شارك فيها عدد من الباحثين العرب والاجانب . وبرغم ان الندوة لم تستوعب عديدين من المفكرين العرب ، لكنها تؤشر الاهتمام بقضية الابداع العربي ، وهي قضية اساسية في الفكر العربي ، وفي نشأة المجتمع العربي وتكوينه وتاريخه .

(٢) ثقافة الانكسار ، ليست ثقافة (الانحطاط) حسب كما هو متعارف على (ثقافة نهاية المرحلة) او تلك التي تقترن بالتدهور السياسي والاجتماعي وبالاندحار الحضاري . بل هي ، علاوة على ذلك ، الثقافة الموردة ، التي تأخذ دون تفاعل ، وتستهلك دون ان تعطي . وهي بالتالي ، ثقافة خائرة ، تعبة .

فشأن الساحة السياسية ، لم تكن الموقعة الثقافية اقل تعرضا للتحدي • لكن شأنها شأن الظروف السياسية تحتاج الى مثل هذا التحدي لكي تتجاوز الخمول وتخرج عليه من جانب ، ولكي يجري من جانب اخر اختبار ادق لـ (المقبولات) الدارجة و لـ (المسلمات) السائدة والتي حالتدون ظهور الثقافة العربية المتجددة ، اي القادرة على مسايرة حركة الانبعاث القومي الاشتراكي •

فمؤرخ الادب وناقده يفترض شيئين في تفسير الظواهر الثقافية : اما انها مبدعة اصلا ، اي انها الوحي الذي يتوقع الامور ويرنو ويقود اليها • او انها انعكاسات متفاعلة مع الواقع نفسه • وبرغم ان الثقافة العربية المعاصرة شهدت الامرين :

لكن واقع الحال يدفع المرء الى البحث في التجاوبات الثقافية مع هذا الواقع • فهناك حسن قومي اشتراكي واضح في عدد كبير من الاعمال الابداعية والدراسات ، لكن هذه تكاد تضيع في زخم اعمال اخرى تعنى بهموم اجتماعية بحتة ، او في احسن الاحوال بالهموم القطرية • اي ان واقع التشتت والانقسام ما زال هو السائد ، وما زالت القضية القومية الاشتراكية ، محور النضال العربي المعاصر ، أقل حظا من الستئثار بالاهتمام الثقافي ، برغم ان المرحلة تشهد طرائق جديدة تعمد اليها القوى الكبرى في كسب مواقع القوة والنفوذ في الوطن العربي[٣] •

---

(٣) ظهرت الفكرة اولى لهذه الدراسة بشكل مقالة في جريدة الجمهورية البغدادية (العدد ١٣ نيسان ١٩٨١ ــ ص ٥) . وعقب عليها الشاعر عبدالمطلب محمود في دراسة ظهرت على الصفحة الخامسة ، في ١٦ نيسان ١٩٨١ ، جاء في مقدمتها : (تبدو مقالة الدكتور الموسوي متوافقة تماما مع الظرف الراهن الذي كان لابد ان تظهر فيه فعلا ... اذ ليس افضل من هذه المرحلة (زمانا دمكانا) للدخول في هذا الموضوع ، وبشكل خاص بعد ان طرحت معركة قادسية صدام المجيدة بصدق وبحق وبدقة ووضوح من عوامل النهوض القومي الاصيل ما كنا نحسب ، احيانا كثيرة ، مجرد امل او طموح انساني ظل يراود اجيالنا العربية طيلة اربعين عاما ، او اكثر ، حافلة بالعطاء الفكري مرة وبالارتداد مرة اخرى ....) .

تداخلات سياسية وثقافية : (٤)

واذا كانت عقود الخمسينات قد شهدت خروجا على الركود الثقافي ، فلأن الحركة القومية ظهرت واضحة في تصديها للتحديات المطروحة على الساحة انذاك ، كما انها خرجت على بعض التسليمات السائدة في الاصطراع مع منافسيها التقليديين على هذه الساحة . وكانت نتائج ١٩٥٦ كبيرة الاثر في تحريك الاجواء الثقافية وتنشيط فاعليتها : ذلك لان الحس بالهوية القومية اكتسب ثقة جديدة بالنفس ، هي في الواقع ذات اثر فاعل في احياء الكتابة الأبداعية ، وتميز ملامحها . فالشعور بالجدارة والاقتدار على اصعدة السلوك لابد ان تعني ابداعيا تعاظم الحس بالفردانية — اذا جاز لنا هذا التعبير — وبالاحساس الجمعي بالهوية :

وهكذا شأن الحركات القومية في العالم في لحظات التصدي والمواجهة ، فهي تأتي في الغالب باحاسيس جديدة ، تنعكس في الغنائية الشعرية ، والتي تتيح تعبيرا ابداعيا خارجا على القوالب الجاهزة والتقاليد الموروثة في الكتابة ، وكذلك في الفرادة الشخصية في القصة والرواية ، حيث الخروج ايضا على الهيكل التقليدي في الكتابة الروائية ، بما يضمن التعمق في دراسة الشخوص ، وتفاعلهم مع اوضاعهم المحيطة : فالحس بالهوية يعني فنيا ايضا التمرد على النمطية والتكرار والمتوارث في الاساليب(٥) وتزايد التفاعل مع الشخوص والواقع بحرية واضحة ، هي المعادل التطبيقي للخروج السياسي على قيود التبعية والهيمنة ، ولهذا السبب فان المقالات التي ظهرت بعد عام ١٩٥٦ ، ولاسيما تلك التي عالجت قضايا

---

(٤) حول بعض ما تعنيه الاتجاهات والانماط الادبية ، راجع كتاب ابرامز

(٥) من اجل تطبيقات في الموضوع ، راجع مقالتي في مجلة قضايا عربية (حول مفهومي الشخصية والبطولة في الرواية العربية) ، العدد ٨ ، ١٩٨٠ ، ص ١٩٣ .

الالتزام واتجاهات الفلسفة السائدة في العالم ، كانت تعني ، وفي السياق الذي نحن بصدده ، وعيا بما يحصل على الصعيدين القومي والعالمي ، ومحاولة ليست جبانة في التعامل باستقلالية مع ما يدور من اتجاهات . وبرغم ان هذه الدراسات ، وبالاخص تلك التي ظهرت في مجلة الاداب ، حملت في بعض تفاصيلها ضعفا ازاء ما يدور من مناقشات في العالم ، الا ان الانفتاح والمعالجة كانا ينبئان بتحول ثقافي لا يمكن ان يدرس بمعزل عن تزايد الوعي القومي الاشتراكي اي الحس بالهوية القومية مقرونا بالنضال الدؤوب لتحرير الانسان والوطن العربي من التبعية الاستعمارية والتغلغل الصهيوني ، ومن التركيبة المستغلة (بكسر الغين) داخل الوطن .

ومن جانب اخر : فان تلك المرحلة وبرغم انفتاحها على الثقافات العالمية من جهة وجدية تململها الثقافي للخروج من دائرة الركود والتخلف من جهة اخرى لكنها وقعت في احيان كثيرة وبحكم غياب لغة اصطلاحية بديلة انذاك في شبكة المسلمات ادارجة في ثقافة ما بعد الحرب العالمية الثانية في اوربا . فاصبحت المقبولات الاصطلاحية بشأن (اليسار) و (اليمين) و (التقدمية) و (الرجعية) سائدة هي الاخرى ، واستمرت كذلك حتى هذه المرحلة ، برغم تداخلات السوح الثقافية وتغير اوجه الصراع وتعددها في العالم .

وبرغم تكرر هذه (المصطلحات) في بعض (الادبيات) ، لكن خروجها العفوي والتدريجي من لغة المثقفين العرب في العقد الاخير لان الى حس عام بقلقها وضبابيتها في المعنى وبارتباكها في المضمون : ذلك لان الساحة القومية شهدت من التداخلات في الخنادق والاراء والمواقف ما يفضح اللاتطابق بين العلني والباطني ، بين العقلاني والعاطفي ، بين المصلحي الشخصي والوطني او القومي عند بعض الفئات والاشخاص : اذ شهد الوطن جملة تداخلات اوقعت اللافتات المعلنة لبعض الاتجاهات

والحكومات في حضيض التناقض المزري والكذب الشنيع • كما تشهد الساحة العالمية من التناقض والصراع ما يحتم على المثقفين العرب متابعة اكثر حرصا لقضية الانسان العربي ، وقضية الوطن •

ففي حمأة التهاب الاجواء واشتداد حدة التناقضات يتضح ايضا ان الامر الاكثر تعرضا للتامر هو (الهوية القومية الاشتراكية) ، وان الامر الذي تسعى القوى الكبرى لمنع تحقيقه هو المجتمع العربي الديمقراطي الموحد • وفي واقع كهذا ، تكتسب المداخلة في موضوعة الانبعاث القومي ببعده الاشتراكي كثيرا من الأهمية بحكم هذه الأجواء وبحكم التجاوزات المقصودة على الحق العربي ، اي حق الانسان والوطن ، والنزعات الاعتدائية لشل الامة العربية ومحاصرتها ، او حتى اجهاض حركتها المتصدرة ، اي البعث العربي الاشتراكي ، بعدما خرجت الحركة من اطار والتفكير والتنظير الى ميدان التحقق في تجربة متميزة هي التجربة العراقية•

واخذت التحديات التي تواجه هذه التجربة تطرح نفسها بالحاح على التنظير الايديولوجي لان العراق لا يدخل الان مجرد حرب عسكرية حول حدود ، برغم ان هذه وبحد ذاتها مبرر فعلي للتصدي والمنازلة ، وهو امر لجأت اليه دول كبرى وصغرى في مجابهة العدوان والخرق ، وفي مراحل تاريخية مختلفة • ولكن العراق يتصدى ايضا لمحاولات التصدير الايديولوجي ، وهي محاولات قسرية تعتمد شتى الاساليب في التصدير ، حتى اصبحت هي الاخرى ضربا معلنا من العدوان يتجاوز الحروب الباردة •

ومن الخطأ ان تدرس ضروب التصدير هذه بمعزل عن مساع واسعة شهدها الوطن خلال السنوات الاخيرة ، همها ايجاد افلاك جديدة من التنازعات والتمحورات الايديولوجية (الطائفية والفئوية) ضمن مشروع كبير لايقاع المنطقة في مزيد من الارباك والتشتت بعدما تأكد بوضوح امام القوى الصناعية الكبرى ، ان العالم الثالث والوطن العربي بخاصة اخذ يتعامل بمنطقية اوضح واشد مع الازمة الاقتصادية الراهنة في العالم

والتي كانت الشركات المتعددة الجنسية وحتى وقت قريب ترى انها ستبقيها سيدة الموقف ولعدة اجيال قادمة .

واذا كانت مخاطر الالاعيب السياسية والاقتصادية الدولية واضحة للعيان امام متابعي الشؤون الدولية ، فأن الساحة الثقافية تبقى دائما بحاجة الى دقة في الرصد ، لاسيما وان هذه الساحة تميزت وفي الوطن العربي بخاصة بقدرتها على تجسيد مواصفات التغيرات في هذا الوطن ، وطبيعة الاطراف المستفيدة من هذه التغيرات بشكل او باخر ، كما ان الساحة وفي ظل غياب حركات قومية اشتراكية واضحة كوضوح حزب البعث العربي الاشتراكي لابد ان تشهد في الظروف الراهنة محاولات مختلفة للنيل من فكر الحزب ومحاصرته ، وذلك ضمن المخطط الكبير الذي يستهدف الوطن في نهضته الجديدة .

التيارات المضادة

وعلى صعيد الكتابة الادبية ، وبرغم ان فكر الحزب يمكن ان يشتمل (تراثا) على كل ما هو معنى ادبيا بالنضال الاجتماعي ـ القومي وبهموم الانسان العربي ، الا انه وفي ظل الاوضاع الثقافية الراهنة ما زال مطوقا بشكل او بآخر ، بحكم سيادة التيارات الانتهازية والترمتية وتلك المناوئة صراحة للروح القومية الاشتراكية ، مهما تعددت مواقعها وهويات اصحابها .

وهكذا ، فعندما تناقش ازمة الثقافة العربية ، وبعد مرور على المحاور المعروفة التي تخص وضع المثقفين العرب وغياب الاجواء الديمقراطية في بعض الاقطار العربية ، يهمل الدور الكبير والفعال للفكر البثي في مرحلة نهوض الامة ، ويشم المرء في الكتابات ميلا الى التعرض لهذا الفكر ، خلف شتى اللافتات :

وبحكم التعصب الصريح ضد هذا الفكر ، لابد ان تأتي التعرضات لتعيش على ما هو دارج في الساحة :

(١) وهكذا يصبح الفكر القومي في مرآى عديد من المثقفين ضربا من الاغراق (الترمتي) • وبرغم محاولة الانفتاح على الثقافات المختلفة في المحتمع العربي ، الا ان مثقفا كعبدالله العروي لا يطمئن الى الفكر القومي الاشتراكي ، ويبقى اسير اجتهاداته الخاصة حول هذا الفكر ، وهي اجتهادات تلونت سلبا او ايجابا باراء جملة من المستشرقين ، لعل من ابرزهم الراحل جوزف كرونباوم •

(٢) اما المترمتون (الثيولوجيون وسلفيو الثقافة) — فأنهم يتخذون موقفا معاكسا تماما : متهمين الفكر القومي الاشتراكي بالالحاد تارة ، وبعداء الديانات تارة اخرى غير عابئين بطبيعة ظهور الفكر البعثي، او بمنظوره الجدلي في فهم الرسالة الاسلامية ، من حيث تداخلها الوثيق والمتفاعل في القومية العربية • ولعل التقاء دعاة التصدير الترمتي في طهران مع رواد الفكر السلفي شهادة اخرى تضاف في سجل معرفة دور الحزب في التحقق النهضوي الجديد • فمجرد مناصبته العداء تعني انه يمضي في طريقه الصحيح ، لتحقيق الانبعاث القومي الاشتراكي •

(٣) اما الفكر الصهيوني فأنه لابد ان يلتقي مع كافة الدعوات المضادة للروح القومية العربية في فحواها القومي الاشتراكي على انه يتخذ من الساحة العالمية برمتها مجالا لمناوئة فكر الحزب والتصدي له ، لا على اساس انه الفكر الاكثر اقتدارا وتنظيما في تعرية الثقافة الصهيونية حسب ؛ بل ولانه المقتدر ايضا على محاصرتها ومنعها من الانتشار :

فعندما تنطرح الايديولوجية الانسانية لحركة الثورة العربية في مسعاها لتحرير الوطن وتوحيده وتحويله اشتراكيا ، وعندما تشغل قضية تحرير الوطن والانسان العربي مكانة متصدرة في هذه الايديولوجية ، فأن ذلك يعني بالحتم سقوط دعامات الارتكاز الصهيوني في الثقافة • اذ تبور امام الحقيقة العنصرية والعدوانية للصهيونية تجارة اليهودي المحاصر وتظهر (دماثته) و (برائته) المزعومتان كسمتين

للسلوك الشايلوكي •

لماذا التناطح الايديولوجي ؟

ولو تيسر امام هذه الاتجاهات جميعا ان تلغي الساحة العربية لفعلت :

فالتناطح الايديولوجي ، وان اكتسب تنوعات مختلفة الا انه الان وبحكم تأكيدات القوى الكبرى على المنطقة ، تميز بحدة جديدة ، ظهرت انعكاساتها في سلسلة من الاصطفافات التي تهدف الى تشيىء الثقافة العربية ، او منعها من التبلور والتماسك في الاقل •

لكن هذه الاصطفافات مضطرة الى الرضوخ امام واقع الثقافة العربية ، وهو واقع فيه من الموجودات والتراكمات ، مايجعل التآمر عليه ضربا من الانتحار التاريخي •

وكان لابد ان يتخذ الاصطفاف اكثر من صيغة واحدة علنية في العداء والتصدي ، واخرى مروجة لصغائر الثقافة العربية ، وثالثة متمسكة بشدة بنزعة سلفية ، هي في شكلها النهائي ، منسجمة مع دعوات التصدير (الايديولوجي) المضاد ، لكونها تنظر جميعا الى السلف بمعنى الكمال ، دون تمييز ، والى الماضي ، بمعنى السكون والركود لا التقدم ولكونها تنظر الى القومية العربية كقضية ثانوية •

وامام هذه الحالة ، حالة الاصطدام الحتمي بين الفكر البعثي والسلفية المريضة بشكليها العنصري الطهرائي والتخلفي العام ، تكتسب المداخلة في موضوعة (الانبعاث القومي الاشتراكي) في الثقافة اهمية كبيرة • اذ كيف يتميز هذا الانبعاث في حركة الصراع الدائر ؟

المثقف البعثي :

وعلى صعيد الاداب ، وضمن مواصفات الدراسات الحديثة ، اصبح لزاما على المثقف البعثي ان يتواجه جديا مع الاسئلة التي اثيرت منذ حين ، كما هي مثارة الان ، بصدد تواريخ الادب العربي ، واشكال

المفاهيم التي يلتقي فيها الفكر البعثي مع غيره ، ويختلف عنها في غيرها ، واذا كانت الامم في حالات الانبعاث وظروف الانعتاق من ثقافات الانكسار ، قد كلفت عددا من باحثيها بدراسة بعض الظواهر في مساع كبيرة وضخمة لتدوين تراثها الماضي والحضر ، فأن الانعتاق الجديد الذي تحقق في ظروف التصدي والمواجهة على الحدود الشرقية للوطن ، يتيح فرصة كبيرة للمثقف للتعامل مع التفاصيل الثقافية واشكال الاصطراع الثقافي باقتدار اكثر ووضوح اشمل وابرز : فعلى الرغم من التداخلات المضببة ، الا ان طبيعة الاصطفاف بين شتى الاتجاهات المضادة للثقافة العربية ، بشكلها القومي الاشتراكي ، يسر امام الباحث التداول بجدية في بعض التفاصيل وهو تداول لابد ان يحصل ايضا في ظروف الانعتاق من ثقافة الهزيمة . تلك الثقافة التي كرست الشكوى والتذمر والعدمية ..

والتساؤلات المطروحة هي : اين فكر الحزب من العدمية الادبية ؟ أين هو من (التقدم)؟ وما الذي يعنيه الانبعاث عنده ، هل هو النكوص والارتداد أم التفحص المتفاعل باندفاع نحو التقدم ؟ او اذ اردنا ان نستعير من الاصطلاحات الدارجة في اوساط الادب العربي الحديث : هل نحن مع (الثابت) ضد المتحول ، أم على العكس ؟ او هل لدينا معادلةواضحة بهذا الشأن في الثقافة الادبية ؟(٦) .

وقبل البدء في رصد بعض الاقتباسات من تراث الحزب في هذا المجال ، يبدو من المناسب ان نعود الى اصطفاف الخصوم : فالاصطفاف

(٦) طرحت هذه الموضوعة في كتاب ادونيس (الثابت والمتحول)، والذي انطلق فيه الشاعر الباحث من استنتاجات جاهزة بشان الثابت ، متفقا مع المتحول ، على اساس ان الاخير هو وحده الذي يتيح الابداع : لكن المرء قد لا يتفق مع تخريجات ادونيس بشأن الثابت ، اذ خلط بين السلطان والراي الثيولوجي المتزمت بعفتها من (الثابت) وبين العاطفة الدينية ، اي بين المؤسسة والحاجة الى الايمان . وهكذا ، فالاصطلاح الى مراجعة جديدة.

نفسه يقودنا بالحتم الى ما يقفون ضده في فكر الحزب •

البعـــــث والتحـــــدي :

ان الاصطراع في خارطته الجديدة هو مع الاتجاهات (الثيولوجيـة الترمتية في طهران) و (العنصرية التوسعية) سواء عند الفرس او عند الصهاينة ، و (واللا قومية) الطبقية ، والاقليـة التشيئيـة والفئويـة اللبنانية والقطرية : فهذه تتوافق جميعا في التصدي للبعث • والعـداء يعني من الجانب الاخر :

(١) ان البعث يرفض الانغلاق والنكوص والارتداد ، فهو مـــع التقدم والعلم ضد التخلف والاندحار والموت •

(٢) انه مع حرية الانسان العربي ووحدته وطموحاتـه في وطـن اشتراكي موحـد •

(٣) انه اوسع ادراكا وانفذ بصيرة : لانه يبصر الكـل ، دون ان يهمل الخاص ، وبالتالي فأنه لابد ان يسير في النهج الذي احتضن اجمل الاذهان البشرية في التاريخ ، تلك التـي رفضـت التعصـب والمغالاة والتفصيلية الصغيرة •

(٤) انه يتجاوز الانانيات الفئوية وعقلية الاقليـة ، ويتصـدى للقطرية •

(٥) ولانه يبصر العام والكل ، فأنه لم ير الصراعات الدائرة فـي الوطن من زاوية واحدة ، بل وضعها في ظروفها المناسبة ، حيث يتداخـل النضالان القومي والاجتماعي في حركة واضحة المعالم ، وطيلة التاريخ العربي •

(٦) انه وضمن التصور التكاملي للواقع الاقتصادي ـ البشـري في الوطن العربي يرى في التوحد ، وفي بعض اشكاله من اجل تحققه كله ، السبيل الوحيد لمواجهة التحولات الاقتصادية العالميـة الراهنـة : اي المتميزة بسيادة الشركـات المتعـددة الجنسيـة من ناحيـة ، ودخـول

الالكترونات في الموازين الاقتصادية ، والمنافسات الصريحة المنطلقة من مواقع القوة والنفوذ :

فالتمكن الاقتصادي والتحكم بموارد الثروة الطبيعية وايجاد الخبرات والطاقات التصنيعية البديلة ، واحتلال مواقع الند كلها لازمة من اجل ان يحيا الوطن العربي بمنأى عن الذل والهيمنة والتدجين .

وقد يتساءل المرء عما اذا كانت (الناصرية) قد تعرضت لمؤامرات وتحديات مماثلة : وليس مبالغة ان نقول انها تعرضت ، لكن المغري في الناصرية بالنسبة للقوى المضادة لها ، انها فكرة نمت تجريبيا دون تنظيم، وكان التنظيم لاحقا لظهور عبدالناصر ، ومنسجما بشكل واسع المرونة مع تطبيقاته .

فهكذا ، يقول الرفيق امين سر القطر لكاسترو (لم يكن هناك حزب ثوري . ولم يكن هناك غير عبدالناصر ، وقد كان ثائرا لكن ظروف عبدالناصر تختلف عن ظروفكم . انتم بنيتم ثوارا قبل استلام السلطة وهو ما لم يفعله . نحن في العراق قمنا ببناء ثوار قبل استلام السلطة — صدام حسين مناضلا ومفكرا وانسانا ، ص ٢١٤)(٧)

وهكذا تعرضت التجربة الناصرية للاجهاض : لكن بصماتها في الثقافة العربية تبقى واضحة لتصب في الاتجاهات القومية الاشتراكية ، ضمن حركة الانبعاث التى نتحدث عنها والتي يضطلع بها الحزب .

واذا عدنا الى التساؤلات الاولى التي ترددت في الثقافة الادبية خلال العقود ، لتبدى لنا بوضوح ان التيارات الثقافية المضادة احجمت عن الاعتراف للبعث بطاقاته الفعلية على اصعدة الفكر والثقافة . واذ كان منظرو الثقافة الادبية يجدون في مقولات (السلفية) و (الجمود و (التأصيل) و (الاغتراب) ... الخ عكازات جاهزة في (تصنيع

(٧) راجع د . امير اسكندر : صدام حسين مناضلا ومفكرا وانسانا (طبعة باريس ١٩٨٠) ، ص ٢١٤

الحركة الثقافية ، فأن الاحرى بهم .. ان سعوا جادين لبلوغ ازمة الثقافات .. تدارس الأصول الفلسفية والفكرية للحركات السياسية ، واستقراء قدراتها المستقبلية على الاداء الفاعل والنجاح .

الابداع والاتباع في مفهوم البعث :

فجدلية الابداع والاتباع التي اغرت العديدين ، لم تكن غريبة على فكر الحزب : وفي الواقع ، كانت الدعوة للانبعاث الثقافي في فكر الحزب تعني امتلاك الروح الحيوية الفاعلة ، تلك الروح التي لا تعني انفصاما بين الشكل والمضمون ، بين الانسان والمفردة .

وهكذا كان الرفيق القائد المؤسس وهو يتدارس ذكرى الرسول العربي ، ينبه الى ان الاسلام دفع بالعرب الى معرفة انفسهم ، وفتح أغوارها قبل نشر الرسالة : وفي جو كهذا يتفاعل فيه العقل والقلب ، والقول والفعل ، اكتسبت الثقافة انذاك صدقها وألقها ، وبالتالي دوامها ، على عكس ما هو قائم في سنوات الانحطاط والانفصام بين الشخصية العربية وبين اللغة[٨] .

وهكذا (فالثوابت) لدى البعث هي ليست ثوابت الغزالي في الفلسفة ولا تفسيرات البلاذري والمسعودي : بل هي الأسس الروحية للابداع ، والتي ترفض الاقتباس والتكرار . فالبعث ينهل من (الاصول) الخبر والدروس ، لا التقليد .[٩] وهكذا يقول الرفيق امين سر القطر

---

(٨) يقول الرفيق القائد المؤسس في محاضرة القيت من على مدرج جامعة دمشق (١٩٤٣) : ان « العرب شديدي التأثر بالالفاظ ، لان الالفاظ كانت عندهم حقائق نابضة مترعة بالحياة ، فكان يسمعها القلب لا الأذن ، وتجيب عليها الشخصية كلها لا اللسان وحده ، لذلك كانت للفظة قدسية ، وكانت بمثابة تعهد ، تربط احياة ، وتتعرف بها ، سواء حياة الفرد ام حياة الجماعة » .

(٩) مع الاخذ بنظر الاعتبار اختلاف المدخل ، يمكن ان يراجع بهذا الخصوص طيب تيزيني ، مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط (دار دمشق ١٩٧١) ، ص ١٣٣

في تشخيص دقيق لحركة الانبعاث في الماضي والحاضر بالنسبة لمفهوم البعث : (نحن لا نريد ان نرجع الى التراث ٠٠ لان الرجوع هو حالة اقتباسية ،لذلك لا نريد ان نقتبس من التراث وانما نريد ان نفهمه وان نهتدي الى الدور القيادي للانسان فيه ٠٠٠٠ نحن ضد الاقتباس في المعاصرة ونحن ضد الماضي وضد نقل الحاضر)٠(١٠)

وفي هذا التطرق الواضح لقضية الاقتباس يمكن للمرء ان يستشف لماذا يقف البعث ضد ما هو (منقول) عن تجارب اخرى : فاذ ينفتح البعث على الثقافات ، يبقى يبصر هذه جميعا حسب معايير التفاعل ، لا النقل النصي ــ فالنقل النصي ، حتى من الموروث العربي ، يعني العبودية للماضي وانعدام التقدم ، والنقل النصي من تجارب الاخرين في الحاضر لا يقل عبودية :

المفهوم البعثي للانبعاث :

اي ان الانبعاث القومي في الفهم البعثي هو تفاعل مع الروح الخلاقة المبدعة للانسان العربي وعلى مر العصور ، لا نقل الاراء والخبرات وتطبيقها ، وهو في هذا الفهم يقف مع طلائع الحركات الابداعية في الثقافات العالمية ، تلك التي تمردت على النمطية الاسلوبية ، والنكوصية الرجعية ، والتقليدية المعاصرة : وهو في ذلك لا يمكن ان يكون غيبيا انزوائيا او تزمتيا سلفيا او رجوعيا يلغي حركة التقدم ٠ فتمثل الروح العربية الخلاقة يضيف رصيد الانسان العربي ةالخلاق الى حركة الثورة العربية في استلهام متفاعل غير اتباعي ، وفي مسيرة متفائلة في المستقبل ، تنظر الى المستقبل بوضوح اكبر وثقة عالية : وهكذا ، لا تكون ثقافة الانبعاث ثقافة متعبة ، او مهزومة ، او ذليلة ٠ بل هي في لغتها وفحواها، ثرية متماسكة وفاعلة ، وطامحة الى الامام ٠

(١٠) من حديث الرفيق امين سر القطر في ندوة التراث المعماري ، جريدة الثورة (١٦ ايلول ١٩٨٠) ، ص ٣

تطبيقات :

وهكذا ، فعند تطبيق الرؤية البعثية في الدراسة ، يستطيع الباحث أعتماد بعض الاسس بشأن المنطلقات التي يعتمدها دارسون اخرون ينتمون الى فلسفة مغايرة • عدا ان هناك فارقا كبيرا بين هؤلاء وبين الباحث البعثي ، فهو يرى الثقافة العربية التي تعبر عن طموح الشعب العربي وآماله وهواجسه ، والمنجزات الفنية لهذه الثقافة ، على اصعدة الصدق والنقاء والامانة والشرف ، على انها بعض من روح هذه الامة ، تتفاعل مع كيانها ، وتتداخل جميعا في وضعها الايديولوجي ، اي القومية العربية • وهكذا يستميل الباحث البعثي كل ما في موروثه وثقافته المعاصرة من نفس متجدد ، صادق وجميل : وهكذا تبدو أمامه (ثقافة الانحطاط) منافية لروح الامة ، لان ركودها من جانب وخلوها وخوائها المعنوي من جانب اخر تعرض ابتعادها عن روح الامة ، وحتى حين البحث في الظواهر الادبية الاخرى ، فان تفسير الظاهرة السلبية ، كتلك التي عرض لها الرفيق القائد المؤسس بشأن اللغة وهو يتحدث عن سر انفصام العربي عن المفردة في العصر الحديث ، تستدعي من الباحث البعثي غوصا جدليا في الاسباب الاجتماعية والقومية للانفصام • فالعقيدة تحكم العلاقة بين الفرد والمجتمع ، وتمنح هذه العلاقة بعدا مختلفا عن العلاقة المادية البحتة • وهكذا كانت العقيدة الدينية في ايام الرسالة الاسلامية الاولى متحررة من التبعية الدنيوية ، بقدر ما تعنيه الاخيرة من طمع دنيوي وشره مادي ، لكن هذه العقيدة من الجانب الاهم والاشمل الحس القومي العربي تداخلا متفاعلا اوجد كيانا قوميا متوحدا ، تلك هي الامة العربية في ايام تصديها الجمعي للمشركين وحلفائهم •

وهكذا ، كان (الانحطاط) الثقافي بصفة ظاهرة خطيرة في كيان الامم يتوج سلسلة من الابتعادات عن تلك الروح العذبة النشطة التي

ميزت السلوك العربي • فاذا كان الطمع الدنيوي الشره يعني ضمنا التخلي عن (الايديولوجية) او الفكرة القومية ، كما يعني ايضا التخلي عن (الايمان) ، فان الفرد او مجموعته ابتعدا في الوقت نفسه عن (العقد المقدس) الذي يربطهما بينابيع المعتقد ، تلك الينابيع التي نهلت منها الشخصية العربية ايام تدفقها الثري في رحاب الصحارى والامصار •

البحث في خصوصيات الامة :

ودراسة اللغة من المدخل المذكور يمكن ان تكون من بين التطبيقات التي تتيح لنا بلوغ بعض الاستقصاءات ضمن جدلية العلاقة بين القومية العربية والاشتراكية ، وبين مقومات هذه القومية وركائزها من جانب وبين جمهور الشعب ، صاحب المصلحة في قيام المجتمع العربي الاشتراكي الموحد •(١١)

وابتداء ، تتميز الامة العربية بخصوصيات عديدة ، من بينها لغتها التي درج الباحثون على الانتباه لها فالعربي شديد الثأر بالالفاظ وموسيقاها ومعانيها ، يشده الكلام شدا حتى كانت فنون الشعر والخطابة والقصة من نشاطاته البارزة ، وحتى اصبح التميز فيها امرا يأتي صاحبها بخط حسن « ان من البيان لسحرا » كما قال الرسول الكريم (ص) فأن السحر غالبا ما حقق لصاحبه حظوة ومرتبة في اكثر من مجال ، كان يأتيه بالجاه او المال او العطف او الصفح ، فخليفة المسلمين يمكن ان يسامحه عن اثم او جريرة ، والاخر قد يهبه ما يريد ، وثالث يسرف في كسبه ايام بني امية وبني العباس وغيرهم وحتى الجن في«الف ليلة وليلة» بدوا مشوهين بالبيان البليغ ، والقصة النادرة ، فغفروا لاعدائهم اثاما اقترفوها مقابل حكاية حسنة • والاشارة لهذا الامر في الحكايات دلالة

(١١) ظهرت بعض هذه الافكار في دراسة اللغة العربية وتاريخها : في مقالة لي في مجلة المعرفة (العدد ٢١٠ ، اب ١٩٧٩ ، ص ٥٧ ــ ٧٧ •

مميزة وحاسمة على انشداد العربي للكلمة والبيان • والبلاغة لا تؤثر في المستمع ان لم تداعب وتناجي وتحاور مشاعره واحاسيسه وامالـه وطموحاته ، اي ان لم تنسجم وشخصه فالكلمة تمتلك معنى صادقا دقيقا ، يتأكد بردود فعل سامعها ، حيث تقترن بذاته اقترانا جعله شديد التيثير بالبيان على مر العصور • ولان هناك تطابقا وانسجاما بين المفردة ودلالاتها وبين الروح العربية ، اصبحت لضروب الفنون تأثيراتها المرادفة للسحر ، يقول ابن طباطبا :

« فاذا ورد عليك الشعر اللطيف المعنى ، الحلو اللفظ ، التام البيان ، المعتدل الوزن ، مازج الروح ولاءم الفهم • وكان انفذ من نفث السحر ، واخفى دبيبا من الرقى ، واشد اطرابا من الغناء ، فسل السخائم ، وحلل العقد ، وسخى الشحيح ، وشجع الجبان وكان كالخمر في لطيف دبيبه والهائه وهزه واثارته »(١٢) •

ولهذا الامر تنبه عدد كبير من المؤرخين ، فكتبوا في قدسية اللغة بالنسبة للعربي ، اذ كان العرب الاوائل يتعاملون مع المفردة تعاملا خاصا ، فالاحجية والتعاويذ تدخل الرهبة في نفوسهم ، والهجاء لعنة لها وقع السحر الخبيث ، حتى « كانت الشعراء عند العرب في الجاهلية بمنزلة الانبياء في الامم » ، كما يروي الصمعي عن اتي عمرو بن العلاء(١٣) •

واتيحت للقاص والراوي فرصة تكوين مجالس عامرة باستمرار فيما بعد ، لكن الجملة المنظومة بقيت دوما شديدة التأثير في السامع ، لها وقع السحر في نفسه ، فتراه يهدأ ويثور ، وينفعل ويتوتر ، يشفي

(١٢) من عيار الشعر ، ص ١٦ ، اقتباس دكتور مصطفى مندور ، اللغة بين العقل والمغامرة (الاسكندرية : منشأة المعارف ١٩٧٤) ، ص ٥٨ .

(١٣) الاقتباس ماخوذ عن كتاب الزينة (ص ٩٥) ، في المصدر السابق ، ص ٤٠ .

ويمرض تبعا لسحر ودلالة وتأثيرات القول المنظوم • واذا كانت واللغات القديمة في حيويتها تتميز بهذه القوة النافذة « مثال ذلك قول فرجيل يمكن انزال القمر من السماء بجملة منظومة »، فأن اقتران المباني بالدلالات في العربية ، واقتران اصواتها واجراسها وتفصيلاتها بمعان دون اخرى ، وارتباط دلالاتها اللفظية بمحسوسات تمتد في واقع العربي البيئي ، يجعل منها لغة متميزة في آفاق العقد المقدس بين المفردة والمعنى ، بين الدلالة والشخصية العربية الذي نحن بصدده الان •

التعهد والانفصام

اذا كانت المفردة تعهدا مقدسا ، وكلمة العربي تشده وتلزمه ، فهل ندعي بقاء ذلك الان ؟

ان الانفصام بين المفردة والشخصية سمة من سمات العصر وفي العالم كله ، واصبحت صعوبة التواصل لغة كارثة من كوارث عالمنا المعاصر • وهي كارثة لها مسبباتها العديدة على الصعد الاجتماعي — الاقتصادي والجغرافي السياسي • وهي تكاد تعم الجميع ، بحكم سيادة وسائل الاتصال العالمية ، كالصحافة والتلفزيون والاذاعة والسينما ، فقدمت هذه وتقدم بأستمرار فنونها في نشر « التلفيق » والافتراء والدس معجونا بالصحيح والفعلي • واجدة مفارقات غريبة بين المفردة والواقع ، في حين ان « المصطلح الجاهز » اضعف من المعنى به ، و « الاشارات والحركات البصرية » قلصت من حجم الاعتماد على الصوت ، و « المسلمات » و « التعميمات » جلت الانسان المعاصر في شك وارتباك واضحين اضافة لقلقه الاجتماعي — الحضاري ، ودفعاه للتركيز على عقله والبحث والتنقيب عن مصادر الاخبار لتقصي الحقائق وراء استار لغة الدعاية ، والتي هي لغة العالم الحالي ! ان كل الذي يحصل على الساحة العالمية ، ومن ضمنه الدراسات اللغوية المتخصصة ، يجر الانتباه تدريجيا عن اللفظة ومعناها ، بما من شأنه اخراجها من

قدراتها التأثيرية وافراغها من محتواها واصدائها .

لكننا وبصدد اللغة العربية ، لابد ان نسعى للابقاء على شيء من تلك الرابطة المقدسة التي ميزت علاقة العربي بلغته ، لا لانها من بين اللغات المعدودة في العالم التي حافظت على تماسكها التركيبي منذ القدم ، ولكن لانها من بين اكثر اللغات القديمة ـ الحديثة حيوية ونضجا وجمالا واستيعابا للشخصية العربية ، ولانها بسماتها هذه جعلت من العربي فخورا بها لدرجة « التعصب » الجمالي في بعض الاحيان(١٤) .

كما اننا لابد ان نعترف ان كونها لغة « القرآن الكريم » جعلها في انتشار دائم من جهة ، وحيوية ونشاطا من جهة اخرى ، على الرغم من كل التمزق الذي اصاب الامة العربية ، وتوفر فرص عدة امام اعدائها للاجهاض على ثقافتها . ولكن ، ولانها لغة القرآن العزيز ، بقيت تعني لغير العرب ضربا من القداسة والطهر ، وهي بالنسبة الى عديدين منهم ـ وحتى في عصرنا الجحود هذا ـ بقيت تعني على الاقل طقوسا مرغوبة تدخل الدفء والطمأنينة في نفوس العديدين الذي يرتلون من القرآن الكريم باستمرار ، حتى وان لم يدركوا المعنى كاملا ، كما لاحظت بنفسي في مناسبات عالمية عديدة .

لسنا هنا في مجال الحديث عن واقع انتشار او انحسار اللغة ،بل في البحث عن نسبية دلالاتها القيمية ، وهي دلالات ترتبط بواقع الفرد العربي في وطنه على مر العصور ، من حيث نسبية ردود الفعل حسب الزمان والمكان المعينين ، وعلاقة الفرد ببيئته ، بكل ما تعنيه هذه البيئة من ارتباطات وموجودات وتركات ، بين الفرد والمحيط المباشر ، وبينه

---

(١٤) يروى عن ابن عباس انه ذكر ما يلي « كانت لغة آدم في الجنة العربية . فلما عصى الله سلبه العربية ، فتكلم بالسريانية ، فلما تاب رد الله اليه العربية» .ويقول الدكتور مصطفى مندور ان هذه تعكس « فكرة العصبية المحبة للغة » ، اللغة بين العقل والمغامرة ، ص ٢٥ ، هامش ٢ .

وبين مجموعته الاشد قربا ، وبين المجموعة والمجاميع الاكبر ، وبينهما وبين السلطان ، او بينها وبين العالم الخارجي • وحيث أن « القيم الاخلاقية » محكومة بعوامل وظروف واعتبارات مختلفة قبل الاسلام وبعده « وخاصة في مجال الغزو والضيافة والعلاقة بين الجنسين ، ومكانة المرأة ••• الخ » ، فأن الحديث عن هذا التفاوت بين وضعية بيئية حضارية واخرى في مجال هذا النمط القيمي يمكن ان يقودنا الى تفاصيل ثانوية الاهمية ازاء صلب مبحثنا حول الاختلال والانحطاط الثقافي في اللغة ، اي حول الانفصام بين المفردة والشخصية العربية ، وهو انفصام قلما يبدو واضحا في القصيدة الجاهلية ، على اية حال ، لاسيما وان هذه القصيدة كانت تعني لعلماء التفسير والبلاغة المعين الذي يرفدهم بالحجة والاقناع • وكان ابن عباس يقول : « اذا تعاجم شيء من القرآن فالتمسوه في الشعر فانه ديوان العرب » ، وذلك بصدد التباين في بعض القراءات وتفسيرات اسبابها •

وعند البحث في معنى الاسلوب ، لابد من الاشارة الى ان المفردة في الشعر الجاهلي تمتلك من القوة والحسم وتداخل الفني النفسي ، وامتزاج الغنائي بالدرامي « الحركة » الخاصة والعامة (القصيدة ككل) ما يجعلها غنية الدلالة في الموضوع الذي نحن بشأنه هنا • وعلى الرغم من ان القصيدة الجاهلية تبدو يسيرة امام النقد التقليدي ، الا انها في بعدها الاعمق معبرة دقيقة عن ذات الانسان العربي قبل الاسلام:ففيها التوق الى الاستمرار او الديمومة في مواجهة تحديات الطبيعة القاسية والزمن العاتي (كما تطرح ذلك لحظة مناجاة الاطلال ، ومرادفاته من من ابتعاد الحبيبة او هجرانها ، والترحال البدوي بحثا عن « الاستقرار حسب الفصول) والحرب الدفاعية كقدر هذا الانسان ، وما الى ذلك • وبدل ان تكون هذه مواضيع وتقاليد متوارثة ـ كما يوحي لنا تقليديو الدراسة الادبية ـ كانت خلاصة درامية لحياة الشاعر العربي قبل

الاسلام ، وتوقه الى الاستقرار الحضري امام التحديات الفعلية القائمة بوجه اللحظة الانية والوجود البَشري متمثلا به وبعشيرته . لقد كانت المعلقات تصب في اتجاه تنامي الحس المدني عند العرب ، ذلك الحس سرعان ما تطور في شكل حضارة متكاملة الملامح الروحية والمعنوية والمادية جاء بها الرسول الكريم . واذا كانت القصيدة تطرب وتريح تشد وتتحدى وتقاوم ، واذا امتلكت قوة البيان الربي وسحره وحيويته ، فلان مفردتها وحركتها الكلية طرحتا حيوية تفيض من حيوية الشاعر نفسه ومواجهته الفعلية لنفسه وواقعه ، حتى كانت هذه ترفد وتغذي حيوية مستمعيه : فكانت القصيدة تطرب وتريح، واذا امتلكت قوة البيان العربي وسحره بهجع ويأمل ، يخاف ويقاوم . وكان ان جاءت تحمل روح هذا الانسان وهمومه وشجونه ، شاملة في داخلها اكثر من نمط وتشريع وخبوءة نفسية لايمكن بلوغها من السطح ، كما يقول يوسف اليوسف(١٥) .

وعندما جاء الرسول الكريم برسالته السماوية فانه كان ابلغ من غيره في التعبير عن هذه الرسالة باحاديثه ، في حين ان القرآن الكريم جاء بايات بينات تهز الانسان وتعيد خلقه من جديد ، فهي ليست«مطهرا فحسب ، بل هي تدخل في ذات الانسان لتغيره وتصقله في مبادىء جديدة ، ليكون حنيفا مسلما : اي ان الاية الكريمة تقوم « مجازا » بأكثر مما يقوم به السحر ، فهي تدخل ذات الانسان وتمتزج مع روحه امتزاجا من شأنه اعادة تشكيل هذه الذات لتظهر متخلقة بخلق جديد وبنظرة جديدة للحياة : « وبدل ان تكون الايات جنسا ادبيا براغماتيا يعلم ويمتع في ان واحد ، كانت المجازا تجاوز الاجناس الادبية ، اعجازا في البيان والتأثير ، اذ « لو انزلنا هذا القرآن على جبل

(١٥) راجع دراسته الرائعة ، بحوث في المعلقات (منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي : دمشق ، ١٩٧٨) ، ص ٧—٩ .

لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » .

وهكذا ، بعثت الايات الجليلات الرعب في نفوس المشركين ، بعد أن هزت معتقداتهم ، باعثة الخلل والانهيار في مواقفهم ، فاتهموه بشتى التهم : وكانت التهمة الرئيسية ان الرسول قد يكون شاعرا او ساحرا ليتمكن من خلخلتهم بهذا الشكل . وعلى الرغم من ان القرآن الكريم وقف موقفا خاصا ازاء المشركين من الشعراء ، الا انه لم يكن ضد الشعر ، وكان ان انشد بعض المسلمين الرسول الكريم شعرا جعل الرسول يقول :

« ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا »[١٦] . وبدل ان يؤدي القرآن الكريم الى انقطاع في الاهتمام بالبيان ، اثار عند العرب ولعا واحساسا مضاعفا جراء تلبيته لحاجة الانسان العربي وطموحاته ، وتحديه للمشركين في الأتيان بمثله من حيث سحره ودلالاته وتأثيره وامتزاجه بذات الأنسان العربي .

وهكذا جاء القرآن الكريم دفعا رئيسا لحيوية اللغة العربية وآدابها ، ولم يكن اقتران الشخصية العربية في يوم من الأيام اوثق وادق من ذلك الذي عرفناه بين المؤمن والقرآن المجيد . اذ ان آيات الله تدخل قلب وعقل المؤمن دخولا موسيقيا عذبا لتعيد في خلقه وتغذيته باستمرار يتجلى دوما بحالات الخشوع التي هي اعظم وابلغ ما يمكن أن تطمح اليه لغة في اقصى درجات حيويتها ونبوغها : ان هذا هو « العقد المقدس » بين اللغة وشخصية وخصوصية الامة . واللغة العربية في ارقى فنونها متمثلة بالقرآن الكريم تسحر القلب وتخاطب العقل معا ، متفاعلة مع الأنسان العربي ككيان متكامل ، تفاعلا خاصا هيزه اعجاز القرآن في الدلالة والتعبير والتأثير : وجاء تأثير الشعر

(١٦) راجع ـ على سبيل المثال ـ اللغة بين العقل والمغامرة ، ص ٤٠ ـ ٤١ .

والخطابة والفنون الأدبية الاخرى بعد ذلك معرفا بقدر تحقيها لهذا التجاوب مع الانسان العربي وامتزاجها بكيانه . ولكن هل دام التجاوب والانسجام المتداخل بين اللغة وذات الانسان بالشكل الذه عرفناه من قبل ؟

وهل يمكن تأريخ بدء « الانفصام » ؟

ان الذي وصلنا عن تراثنا في الاداب يدل على ان الحس بوجود هذا الانفصام حصل اثر اتساع المجتمع العربي وتداخل حضارات اخرى معه ، معروف لدى المؤرخين ان خلفاء بني امية كانوا يبعثون بأبنائهم الى البادية لاتقان اللغة ، وهو واقع يعني ان طبيعة التطورات العصرية والمعنوية ــ المادية (الخلقية والدنيوية) اوجدت انفصاما بين الشخصية واللغة[١٧] كما ان شعر البلاط في العصر الاموي بدأ مصقولا بما يعني ان قضايا التكسب واشتداد المفارقة بين الطموح والواقع امور شغلت الذهن الثقافي واربكته . كما ان الفتور في الاحساس اللغوي (اي الانقطاع بين المفردة والانسان) بدا واضحا في قصائد شعراء القرن الاول ، وكان ان غلبت اثار الصنعة والتقليد على قصائد الطرماح والكميت ، وهو امر نبه اليه الاصمعي . فأكثر الطرماح من اللفظ المهجور في محاولته محاكاة شعراء ما قبل الاسلام ، في حين ان الكميت اكثر من اللغة الدارجة في قصائده[١٨] . ومنذ القرن الثاني للهجرة ، اخذ اللغويون يكتبون عن اللحن والعامية في اللغة ، فظهرت مؤلفات ومتابعات

---

(١٧) سئل عبدالملك بن مروان : ما الذي اكثر الشيب في راسك يا امير المؤمنين ؟ اجاب : كثرة صعود المنابر وخوف الوقوع في اللحن .

(١٨) راجع بهذا الشأن دلالة الالفاظ العربية وتطورها . محاضرات القاها الدكتور مراد كامل (معهد الدراسات العربية العالية ، مطبعة نهضة مصر ، ١٩٦٣) ، ص ٤٠ . وكان الدكتور ابراهيم السارائي قد تناول بعضا من الموضوع في تاريخ العربية (نينوى : منشورات المركز الثقافي لجامعة الموصل ، ١٩٧٧) ، ص ١٠٣ .

عدة في هذا المجال ، كلحن العوام لعلي بن حمزة الكسائي (المتوفي في ١٨٩٩ هـ) ، ولحن العامة لابن زكريا الفراء (المتوفى سنة ٢٠٧ هـ) ، وتلت كتابات مشابهة لابي عبيدة معمر بن المثنى والاصمعي وابي عبيد القاسم بن سلام وابي نصر احمد بن حاتم وابن السكيت وغيرهم(١٩) .

وبعد ذلك ، يمكن ان نطالع كتابات الجاحظ حين نبه الى لغة العوام الحافلة باللحن في النصف الاول من القرن الثالث الهجري ، حيث استمر الامر كذلك ، واشتد بصورة مربكة ايام المعتصم ، فكان ان اشتكى ابن قتيبة من ظاهرة الانحطاط الثقافي حتى بين ما يسمى بأوساط « الطبقة الراقية » فهيأ وغيره كتبا معرفية وارشادية تهدف الى تعليم المعنيين عدة الكتابة والتأليف . ومؤلفاه « أدب الكاتب » و « المعرفة » من بين كتابات عدة ترشدنا ضمن هذا المنهج الى واقع انفصام « اللغة » عن بواكيرها ، اي عن ينابيع المعرفة العفوية باللغة ! وفي « جواهر الالفاظ » ، تنبه قدامة بن جعفر لواقع الانفصام ، مركزا على ابتعاد القالب عن المادة . على ان التشخيصات هذه للمحنة لم تكن وحدها دليلا على تصاعد حالة الانفصام والاختلال ، فكتب ترويج العبارة الفصيحة والقول البليغ شاعت بما يشير الى تدهور العلاقة الحسية ـ اللفظية بين الشخصية والمفردة . وقارىء (الالفاظ الكتابية) للهمداني يدرك كم ان مهمة جمع لالىء الانشاء اصبحت في الصدارة في ظروف اصبحت اللغة فيه تلقينا وحفظا بعدما كانت جزءا من الانسان العربي . ومنذ تلك الفترة وما بعدها ، لم يعد الشعر موهبة ، فأصبح صنعة يقدر على مزاولتها من يتقن بحور الشعر ويلم بفصيح القول . فأخذ كتاب النثر كالخوارزمي والهمداني وابن العميد والاسكافي والصاحب بن عباد يكتبون الشعر ايضا .

(١٩) راجع ابراهيم السامرائي ، اللغة العربية وحاضرها بين امها وحاضرها (بغداد : منشورات وزارة الثقافة والفنون، ١٩٧٨)، ص٧٧ـ٧٨.

وهكذا ، فأننا عندما نعني بتقصي ظاهرة انفصال « القالب » عن « المضمون » او المفردة عن الدلالة « ومرادفها : الشخصية » ، لابد أن نعودالى الفترة التي تبدت فيها سمات « الانحطاط » او«الأنفصام»، فاذا كان اسامة بن منفذ ولاحقوه في القرن السابع الهجري كالنحوي بن يعيش (المتوفى في ــ ٦٤٣) وابن أصبيعة (المتوفي في ــ ٦٦٨)(٢٠) قد كتبوا بلغة العوالم الركيكة ، فلأن الظروف المعاصرة والسابقة قد هيأت لذلك ، بما يجعل من هذه الكتابات ظاهرة رافقت ظواهر تدهور عديدة ، ليست منفصلة بالتأكيد عن اندحار الحضارة العربية ، وعندما يبدأ الخليفة الاموي بالاحساس بأن واقعة لا يتيح لابنه الالمام بالعربية بقولها وسلاستها العفوية ، فأن الأمر يدعونا الى التأمل . ولعل السبب الرئيس الذي يكمن وراء ظاهرة الانفصام هذه يتعلق بطبيعة الاتساع والتدخل الحضاري (وما يرافقهما ويعقبهما عادة حالة ضعف السلطة اداريا وثقافيا ومعتقدا من انحطاط وترد) ، فعلى الرغم من ان الاتساع والتداخل يعنيان حيوية ونموا وصعودا ، الا انهما ليسا بالضرورة طلسمانا ضد التخلل . ان قيمتهما المعنوية وقدرتهما على انعاش الامة حضاريا مرهونتان بالقيم العامة والخاصة التي تطبع سلوك والتزامات السلطة والطبقة المتنفذة ، فأذ تتوافق مصالح الأخيرة مع مصالح الامة تتحقق القيمة الحضارية الخالدة التي يصعب أفولها ، لكن القيمة المعرضة للتخلخل هي قيمة الطبقة المتنفذة الخاصة ، وهي قيمة نفعية في الغالب تتناقض ومفهوم الأيمان او المعتقد ، الذي يبقى محركا ورافدا رئيسا يؤدي الى انحدار واندحار ، ذلك لان الايمان (الدين الاسلامي) ولد في جوهر الامة ، ممتزجا بروحها وفكرها وخصوصيتها امتزاجا جدليا وطيدا يجعل من المستحيل عزل القومية العربية عن هذا الايمان . وهكذا ، فمنذ تشخيص مواطن الضعف القيمية

(٢٠) راجع دلالة الالفاظ : ص ٦٣ .

، غالبا ما نرى ان مواقع الخلل مرتبطة بمواقع النفوذ والسلطان لا بمرتكزات الامة وطاقاتها الحضارية ، وعلى الرغم من ان الطبقات المتنفذة تحقق للامة الكثير في بعض الاحيان ، الا انها لا يمكن ان تطرح كبديل عنها ، كما ان الخير الذي تأتي به لايغفر الشر الذي تلحقه ، لأنها في كل مساعيها كانت مدفوعة بمصالحها الخاصة التي تكتسب مواصفات عامة من خلال الاقتران والتشابه وانسحاب المصالح . ولكن لأنها لا تمثل الفلسفة السائدة ، فأن القوى المتنفذة تحتل الصدارة في اهتمامات المؤرخ المعني بالعام والبارز في الغالب .

وهكذا ، فعند البحث في اوليات « الانحطاط »، يرى الباحث أن بدايات الاختلال بين المفردة والمعنى غالبا ما تساير ضعف العقيدة او تطبيقاته العملية ، لتتوج في النهاية بتدهور البناء الهيكلي للطبقة المتنفذة ، وما يوازي ذلك على الصعيد الثقافي من نضب بعض الاجناس الادبية ، وظهور اتجاهات ادبية ولغوية جديدة تولع بالصنعة والزخرفة والصورة والموروث الادبي كخلاص من الارباكات والاختلالات الناجمة عن سقوط القيم السابقة . ولتقريب الامر ، يمكن ان نأخذ مثالا بعيدا عن واقعنا العربي لنتمكن من تدارس الفرضية السابقة حول علاقة الانحطاط بالتدهور الهيكلي او البنية التنظيمية لاي مجتمع في حالة ازدهار مادي ، وليكن هذا المثال واقع الامبراطورية البريطانية في القرن التاسع عشر : ان الطبقات الوسطى التي نمت في انكلترا بعد الثورة الصناعية بشكل خاص كانت صاحبة قيم معينة تمثلت بازدهار الفلسفة النفعية « التي تؤكد على المنفعة المادية والمعنوية لاي نشاط بغض النظر عن الاحتياجات والعواطف الانسانية » ، وبسيادة المذهب البيورتاني (متمثلا بالديانة البروتستانتية التي تؤكد على الشعائر العلنية كأرتياد الكنيسة كل يوم احد وعلى العمل الجاد والجدية في السلوك) ، اي ان الطبقات الوسطى السائدة اوجدت قيمها في الدين والدنيا والتي تساير وتماشي مصالحها

في الكسب المادي من جهة ، وفي ضمان تنفيذها مقارنة بالطبقات المستغلة (بالفتح) من جهة اخرى : فاذا كانت الفلسفة النفعية قد حدث من نضج الاتجاهات الجمالية والخيالية والادبية بشكل عام (اي كل مالا يخدم المصالح الاجتماعية للطبقات الوسطى)، فأن البيورتانية قد جعلت من (الدين) شعائر مظهرية وتأكيدات دنيوية خدمت (اذا ما قورنت بطقوس الكاثوليك) طموحات الطبقات الصاعدة في تحقيق مكاسب مادية ومواقع نفوذ في الداخل والخارج • ومهما كن وجهة نظر الباحث في طبيعة فلسفة هذه الطبقات (وهي الفلسفة التي تقف وراء التوسع الرأسمالي في الداخل والنفوذ الاستعماري في الخارج) ، فانه لابد ان يلاحظ ان « عنفوان » وجدية هذه الطبقات الصاعدة وتمسكها العنيف بكل ما يخدم مصالحها المادية طبع اللغة السائدة انذاك بطابع « الرصانة » و « الجدية » والخوف من كل ما هو تصوري وخيالي • ان من يطالع لغة الفكتوريين يرى انها تمتاز بالمفردة الصلبة والجملة المتماسكة تماما كما هو امر الفلسفة والسلوك الفكتوريين : لكن التطورات في الداخل (الحريات الديمقراطية للطبقات الاخرى) والخارج (القضية الايرلندية ، والصراعات الاوربية ، واشتداد المنافسة الاستعمارية ، وتبلور الحركات القومية والوطنية في العالم الثالث ، والحرب الاولى) اوجدت وضعا جديدا تزعزعت فيه بالتدريج قيم وفلسفة الطبقات السائدة ، وحلت متوازية معها قيم اخرى تمثل وتعكس التطورات المستجدة ، وسقطت المسلمات ونزعة الرضاء بالنفس التي ميزت الطبقات المسيطرة ، وازدهر الشك والتشكيك ، وخرجت مختلف الاتجاهات الادبية والفلسفية والسياسية ، وتأسست نواد عدة معنية بمواضيع متباينة ، ولم يعد ممكنا التحدث عن القيم الفكتورية كمسلمات • وكانت صيحة تنيسون في لوكسلي هول بعد ستين عاما) بمثابة الادراك الفكتوري لنهاية المطاف وتمزق اسطورة الثبات والبقاء

والتطور التي ميزت تفكير هذا الشاعر وغيره في منتصف القرن التاسع عشر • وما ادب « الانحطاط » ـ كما يسميه مؤرخو الادب الانكليزي ـ الذي ازدهر في خاتمة القرن التاسع عشر ، الا ادب « صفوة » تربت في احضان الفكر السابق ، لكنها شعرت بانسحاب البساط من تحت اقدامها، وهكذا اخذت تسعى الابتعاد عن القيم المهزوزة التي مقتتها ـ برغم امتزاجها بجذورها ـ من جهة ، والاحتماء في « برجها العاجي » بعيدا عن « شعبية الثقافة » من جهة اخرى • لكن الذي يهمنا في هذا المجال ، هو ان ادب « الانحطاط » كان اشارة الى افول حضاري ، فجاء بعد ان مضى الادب الفكتوري شوطه وثيقا بالمتغيرات التي طرحت على حياة الطبقات السائدة في ذلك الاثناء ، وبعد ان بلغ نهاية مطافه شأن القيم التي بلغت نهاية المطاف قبل ان تجهز عليها البدائل وتغلبها اخلاقيات مغايرة : وهكذا ، كان ادب الانحطاط ادب نهاية فترة ، فكان مزخرفا ، ملما بالصنعة ، ومعنيا بجماليته الظاهرة الشفافة وباخفاقات وهواجس كتابة الصغيرة المطروحة في لغة بسيطة باهتة اللون تختلف كثيرا عن ذلك « الوقار » وتلك « الصلابة » اللتين ميزتا نثر وشعر الفكتوريين « اي ادب الطبقات المهيمنة انذاك » • وعلى الرغم من ان ادب الانحطاط ساد في نهاية القرن ، الا ان بداياته كانت قائمة في طبيعة العوامل التي ادت الى انهيار قيم هذه الطبقات ، حتى وان كانت النتاجات الطاغية غزيرة لدرجة التعتيم على كل « بصمات الانحطاط » الثقافي الاولية •

وبالرغم من التباين والخلاف بين المثال المطروح و بن موضوعنا ، الا ان « قيم النظام » معرضة للانتكاس والتدهور بأستمرار ما دامت (قيم طبقات متنفذة) بدرجة رئيسية ، وما دامت علاقتها بواقع الامة مؤطرة باهتمامات ونوازع مصلحة تحرفها في كثير من الاحيان عن مهماتها الاخرى حيال الامة • وعندما نحصر موضوعنا بانعكاسات اختلال القيم على اللغة تتأكد لنا جدلية الايمان وثبات القيم وترابط

الذات باللغة ، في حين ان الاغراق في الدنيوية (اي التخلي عن الايمان) يقودالى ابتعاد عن اللغة وانفصام بين الشخصية والمفردة • فاذا كان العقد المقدس بين اللغة والذات العربية قائما في جوهر الارتباط بين القرآن الكريم والفرد ، وبين الالتزام المعروف بالكلمة واللفظة ، فأن غياب الايمان وتزعزعة وتخلي الناس عن « قدسية الحياة » طمعا في دنسها (متمثلا بالجشع المادي والغرور البشري وحب التسلط واستشهاد) يعني انفكاك وانفراط (العقد المقدس) : والتمهيد للانحطاط الثقافي كان قائما في طبيعة العوامل التي قادت الى اندحار بعض المفاهيم الاساسية التي اوجدت التحول الايجابي في واقع المجتمع العربي ، اي المفاهيم التي اعتمدتها الرسالة السماوية التي اشاعها الرسول الكريم • ولنأخذ على سبيل المثال احد هذه المفاهيم الرئيسية ، وهو مفهوم (الخلافة) • فاذا كانت الخلافة ــ كما يستنتج الدكتور الياس فرح واخرون ــ صيغة مبتكرة تؤكد « اصالة النظرة العربية الثورية المستوحاة من رسالة الاسلام وتجربته في ظل قيادة الرسول العربي » فأن تحولها بمجيء بني امية للحكم الى « نظام وراثي شبه ملكي » يعني انقطاعا في « العلاقة بين قيادة الحكم وبين الجماهير »[٢١] • ويبدو الانقطاع اشد وضوحا عندما يؤخذ في سياق التحولات ابتعادا عن مهمات الرسالة الاسلامية : وكما يشير الدكتور الياس فرح في قراءته لواقع المجتمع العربي انذاك ، فأن المؤرخ لابد ان يلاحظ بروز ظاهرة (الميكافيلية) السياسية ، ووجهها الملازم (اي التصفية السياسية للخصوم) ، والانحراف عن مبدأ الشورى والتحول نحو الوراثة ، وظهور ارستقراطية بني امية ، وتقلص الممارسة الديمقراطية ، وتعاظم النفوذ الاجنبي في الدولة العربية ، وغلبة التيارات القبلية والشعوبية[٢٢] • وفي مجال هذا

(٢١) مقدمة في دراسة المجتمع العربي والحضارة العربية (بغداد : وزارة الثقافة والفنون ، ١٩٧٩)، ص ٨٢ .

(٢٢) المصدر السابق ، صفحة ، ١١٧ ــ ١١٨ .

الموضوع ، يمكن القول ان كافة المظاهر السلبية السابقة تدخل في باب التأكيد على الدنيا والانبهار بالسلطان ، واهمال الايديولوجية العربية ، متمثلة انذاك بفحوى الرسالة الاسلامية ، بما يشير الى تصاعد النزعة المادية على حساب النزعة الروحانية ، اي التخلي عن التعهد المقدس على صعيد اللغة بأتجاه (الانفراط المتدني) • وليس صعبا امام الباحث ايراد الشواهد والادلة في هذا الميدان ، ولكن ليس هناك ابلغ دلالة على انفراط العقد المقدس الذي تحدثنا عنه ، من موقف ابن الخليفة الاموي الاول ، اذ ان يزيدا كان يجتزىء من الايات الكريمة اجتزاء خبيثا في تبريره اللعوب لشرب الخمرة • وعندما يبدأ الاستخفاف بهذه الصورة ، فانه من الصعب اغفال بوادر التدني الخطيرة باتجاه الانحطاط الثقافي الذي نحن بصدد رصد انعكاساته في اللغة •

ان بعض عوامل الانحطاط الثقافي تتعايش في كثير من الاحيان مع عوامل الصحة والقوة ، وعلى الرغم من انها اقل وضوحا عادة واضعف تأثيرا اثناء ازدهار الحضارات واتساعها ، فانها تعيش على الهامش في الغالب ، متحينة الفرص المناسبة للتحرك نحو القلب ، ويذهب الدكتور الياس فرح نفس المذهب التفسيري هذا ، مشيرا الى ان « عوامل التجزئة والانقسامات القبلية والارتداد عن العقيدة او الايمان السطحي بها وانواع الصراعات الطبقية والايديولوجية والعنصرية والطائفية كانت تتحين المجال المناسب للظهور »[٢٣] • وهكذا ، فأن دراسة « الانحطاط الثقافي » يجب ان تبتدىء بحيثيات هذا « الانحطاط » ، لا بسماته الغالبة خلال فترة لاحقة : فالجراثيم الغربية على الجسم تبدأ تمركزها من البداية متحينة فرص الانقضاض على الجسد المريض في فترة تالية • واذا كانت الخلافتان الاموية والعباسية تمثلان فترة انتعاش الحضارة العربية ، لتبلغ اوجها في بغداد خلافة الرشيد والمأمون ، فأن هذا

(٢٣) المرجع السابق ، ص ١١٦—١١٧ •

الانتعاش الحضاري يجب الا يلهينا عن « العوامل » الجانبية والاساسية التي اسهمت في (الانحطاط) . واذا كانت العوامل المهدة لذلك اقل وضوحا من تلك التي قادت ايضا الى اندحار الخلافة العباسية ، فلأن سقوط الخلافة العباسية كان في شكله الاخير سقوطا على ايدي اعداء الامة العربية ، وهو سقوط اسهم في الاتيان به والانحدار نحوه بعض الحكام الذين شغلتهم الدنيا عن مصير الاسلام والامة العربية . ولسنا هنا بصدد البحث في هذه (العوامل) ولكن يكفي ان نقول ان « السقوط» كان يعني ايضا اغتيال اللغة العربية وآدابها ، فبرزت مختلف الاتجاهات والافكار التي عكست مأزقا خطيرا في الثقافة العربية ، لم يكن معزولا عن المأزق الذي يعاني منه المجتمع العربي آنذاك .

واذا كانت انعكاسات الانحطاط والتدني واضحة في مجالات اللغة « سيادة العامية بعد مرحلة ظهورها بين الاوساط المدنية ، والابتعاد عن عضوية الاصول ، وشيوع كتب المتأدبين ، وانخذال صدق التجربة الشعرية ، وانفراط العقد من المفردة العربية ... الخ » ، فأن السمات (المعنوية) للتحالف الدنس بين واقع الانحطاط والمثقف المرتزق بدت بوضوح كبدائل لما كان قائما ايام التحالف المقدس بين المفردة الحية النابضة والشخصية العربية الجريئة الصادقة .

الخلاصة :

اي ان الباحث ذا النظرة القومية الاشتراكية يبصر العلاقة بين حيوية اللغة وحيوية الشعب على انها علاقة حتمية ، وبالتالي فأن المسببات التي تؤدي الى نخر المجتمع او هدم قيمه او ايقاعها في مزالق التناقض خارج دائرة العقد المقدس بين الانسان العربي ولغته وادابه الحيوية المعبرة عن ذاته وتطلعاته ، هي ذاتها المسببات التي تهدم هذه اللغة ، وتؤدي بها الى هاوية الانكسار الثقافي .

وعند التصدي لكل ذلك ، يكون (الانبعاث القومي الاشتراكي)

ملتزما مبدئيا بمسؤولية مضاعفة : العودة المبدعة الى الموروث من جهة واحيائه في ثقافة معاصرة متجددة ومستوعبة لواقع هذه المرحلة ، ومستقبل الامة العربية في عالم سريع التغير .